الأديب

يوسف الخطيب

تجليات المأساة وفجائعية البوح في شعر يوسف الخطيب

محمد جواد البدراني*

ولد الشاعر يوسف الخطيب في قرية دورا إحدى قرى الخليل في يوم ربيعي إذ يقول في سيرته الذاتية (أعلمني أبواي انهما أتيا بي إلى الحياة في صبيحة السادس من آذار 1931) كان والده أحد المشاركين في الكفاح ضد الإنجليز ولذلك اقتحم الإنجليز داره بحثا عن والده وهو في الخامسة من العمر وكانت هذه أول تجربة له في مواجهة الخوف والرعب.

درس الابتدائية في مدرسة دورا الابتدائية وكان من المحببين إلى معلميه والمبرزين في درس الإنشاء وكتب أول قصيدة وهو في الصف السادس الابتدائي بعد فراق جارته التي ابتعدت عنه قال فيها:

ذهبت جميلة فالفؤاد كليم وترحلت عنّي فبتُّ أهيم

وبعد إكماله الابتدائية انتقل للدراسة في ثانوية الخليل وعمل في إحدى الصحف المحلية في الأردن، وبعد ذلك انتقل لدمشق لإكمال دراسته الجامعية فالتحق إلى كلية الحقوق بالجامعة السورية، وتخرج من الكلية عام 1955 وشارك في المسابقة التي أقامتها مجلة الآداب البيروتية وفاز فيها بقصيدته (العيون الظماء) وفي العام ذاته 1955 أصدر طلبة الجامعة السورية على نفقتهم ديوانه الأول "العيون الظماء للنور" بعد ذلك سافر للأردن حيث عمل في الإذاعة الأردنية وأسهم في تطورها ببرامج رائعة حتى 1957، إذ اضطر إلى مغادرة الأردن لأسباب سياسية فالتحق بالإذاعة السورية وأصدر ديوانه الثاني (عائدون) 1959، لكنه تعرض للاعتقال والسجن مرات عدة مما اضطره للجوء إلى بيروت لكنه سرعان ما غادرها إلى هولندا فعمل في القسم العربي بإذاعة هولندا العالمية، لكنه آثر العودة إلى العراق على أثر ثورة 8 شباط 1963 ثم غادر العراق إلى سورية بعد انتهاء الثورة حيث استقر فيها بصورة دائمة.

بعد عودته إلى سوريا أصدر ديوانه الثالث (واحة الجحيم) عام 1964 ثم تولى عام

* جامعة الموصل – العراق.

1965 منصب المدير العام للإذاعة والتلفزيون، واستقال منها بعد عام واحد ليؤسس دار فلسطين للثقافة والإعلام والفنون التي تولت إصدار مطبوعات عدة لعل من أهمها إصداره الموسوعي (المذكرة الفلسطينية) 1967-1976 الذي مثل عملا أرشيفيا ضخما لأبرز الأحداث والمستجدات الفلسطينية، وأصدر (فلسطينيات الإعلام) و (مشاهد البلدانية)

شارك في الهيئة التأسيسية لاتحاد الكتاب العرب ووضع نظامه الداخلي في عام 1968 وقد اختير بإجماع القوى السياسية والفعاليات الشعبية الفلسطينية في المجلس الوطني الفلسطيني (البرلمان) عن المستقلين، كما أصدر عام 1964 مجموعته القصصية (عناصر هدامة 1964) عن المكتبة العصرية.

كما كتب سيناريو عن مجزرة كفر قاسم ترجم إلى عدة لغات عالمية، أصدر عام 1983 ديوانه (مجنون فلسطين) وهو اول ديوان سمعي في الوطن العربي بصورة أربعة أشرطة كاسيت، وقد سبق أن أصدر أنطولوجيا ضخمة ضمت دراسات عن الشعر الفلسطيني أسماها (ديوان الوطن المحتل 1968) وهو من أهم الأعمال التي وثقت للشعر الفلسطيني.

أصدر عام 1988 ديوانه (رأيت الله في غزة) ثم اعقبه بـ (بالشام أهلي والهوى بغداد)

ظل عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني حتى وفاته، توفي في دمشق في 2011/6/16[1] الموافق الخميس 14 رجب 1434هـ

ولعل أهم الملامح العامة في شعر يوسف الخطيب تتمثل في:

1) الشعور بالغربة:

قضى الخطيب جلَّ حياته غريبا عن وطنه الأم، موزعة أيامه في "المنفى القومي" متنقلا بين أقطار العروبة وبلاد الغربة حالما بالعودة إلى وطنه، فظل هذا الشعور بالاغتراب يرافقه طيلة حياته منذ ديوانه الأول حتى أواخر حياته فهو يقول:

إن صحبي توزعوا الموت والذل بعيدًا في كل أفق غريب

[1] انظر "السيرة الذاتية للشاعر يوسف الخطيب" مجلة **العودة** العدد 272 أيلول 2013، ومحمود حامد. "يوسف الخطيب. مجنون فلسطين وعاشقها" جريدة **الأسبوع العربي**، ع 955 سنة 2005.

تلـك آثـارهم تـذوب علـى الرمـل كخطـوى علـى المتـاه الرحيـب
يـائس مثلمـا أسـاق عـن الـدنيا ذلـيلا فـي سـاحة التعـذيب
قـد أكـن آثمـا، غيـر أنـي، أسـأل الحـاكمين أيـن ذنـوبي؟

إن الشاعر يعيش غربة زمنية ومكانية في واقع فُرِضَ عليه لا ذنب له فيه "وتقترن الغربة في الواقع الفلسطيني الجديد بصور النزوح والرحيل والوداع التي عاشها الفلسطينيون بقسوة وأصبحت لهم تيها جديدا"[1]، يضربون فيه بآفاق الأرض نازحين عن مساقط رؤوسهم ومحال ذكرياتهم بعد أن تفرق الأحبة شذر مذر فهو يقول:

على الرمال نازحون ... نازحون/ وفي مجاهل القفار نازحون/ كما يوقع السحاب في السكون/ رثاء أرضنا الخطية الحنون/ وفي موار الأفق تسرح الظنون/ أنازحون ... نازحون ... نازحون/ تسعين شهرا في الشفاه والعيون/ نقولها وألف خنجر يهون/ على الرمال نازحون نازحون[2]

إن النص قائم على بنية التكرار فقد تكررت كلمة نازحون ثمان مرات في النص ومن المعروف أن التكرار يؤدي وظائف دلالية تعمل على تجميع العناصر والوحدات الدالة في شبكة متماثلة ونفسية ترتبط بالفكرة المتسلطة على الشاعر"[3]، والتي سعى إلى إيصالها إلى المتلقي فالتكرار يسعى إلى إنارة التجربة الشعرية والإيحاء بعمق تلك التجربة عبر الترابط والتأكيد على دلالة مقصودة بعينها فالخطيب هنا يحاول أن يؤكد على عمق الشرخ الناجم في أعماق روحه بسبب النزوح والابتعاد عن الوطن.

ومن الجدير بالذكر أن السطرين الأخيرين يتناصان مع قول السياب:

بين احتقار وازورار وانتهار أو خطية/ والموت أهون من خطية/ من ذلك

[1] خالد علي مصطفى. **الشعر الفلسطيني الحديث**. بغداد: دار الحرية، 1978: 90.

[2] يوسف الخطيب. **عائدون**. ط1. بيروت: دار الآداب، 1958: 58.

[3] نازك الملائكة. **قضايا الشعر المعاصر**. ط5. بيروت: دار العلم للملايين، 72. محمد جواد البدراني. **جماليات التشكيل الإيقاعي في شعر السياب**. بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2013: 152.

الإشفاق تعصره العيون الأجنبية/ قطرات ماء معدنية[1]

فإذا كان السياب قد عاش غربة مؤقتة فرضها عليه المرض تارة والتقلبات السياسية أخرى فان الخطيب عانى من غربة دائمة بعيدا عن وطنه، والذي يجمع بينهما هنا أن السياب عدّ الموت أهون عليه من تعاطف الآخرين معه وشفقتهم عليه وعد الخطيب طعنات آلاف الخناجر اسهل عليه من وصفه وأبناء بلده بالنازحين متنقلا في البلاد العربية والأجنبية مفتقدا وطنه الذي ظل يسكن في خافقه أينما حل لذلك نراه يقول:

هل يشق البال عن قرميدك ... الوردي يا يافا وفي أية دنيا
إن تغب عنك فكي نلقاك حتى ... في ربى الجنة إيذانا ورؤيا
نحن يا يافا ارتقاب الصبح ... لا أجفاننا تسهو ولا نلمح شيئا
لم نزل يا أم نستهوي لك الأبواب ... أدمننا بيوت الناس سعيا
كيف تأتيك ومن أين دعي نجواك ... تهبط في دجى الغابة وحيا..[2]

إن الشاعر يرى أن بيوت الناس أصبحت هي بيته الدائم ولم يعد له وطن يحيا به فقد أضحى غريبا مضيعاً في البلدان التي أدمت قلبه ولم تحقق له ما يصبو بعد أن فارق جنته في ارض فلسطين لذلك نجد نار الغربة تعتمل في ذات الشاعر وتزداد قسوة على مدى الأيام بعد أن يأس من العودة إلى بلده أمام عوامل التردي العربي التي تزداد باطراد. ويلاحظ أن الشاعر أكثر من بنية الاستفهام في النص لما يحمله الاستفهام من حيرة ممتدة حين لا يجد له جوابا، وأكثر الشاعر من حروف المد لما تمنحه من امتداد صوتي واستطالة في النص تناسب الحزن الممتد والنوح الفجائعي فضلا عن التراكم الصوتي لأصوات الصفير بما تحمله من توجس وخوف ووسوسة.

[1] **ديوان بدر شاكر السياب**. بيروت: دار العودة، 1974: 2/ 114.

[2] محمود حامد. **يوسف الخطيب عاشق فلسطين**. موقع مؤسسة القدس للثقافة إنترنت.

2) رفض الواقع العربي والسخرية من الحكام:

يتسم شعر الخطيب برفضه الواضح للواقع العربي وإيمانه المطلق بأن العرب في حاضرهم يمثلون حالة مرفوضة تحتاج إلى تغيير، فالرفض كما يرى فرويد "عملية دفاعية أصيلة تجاه الواقع الخارجي من خلال انشطار الأنا في عملية دفاعية"[1] تسعى جاهدة إلى التخلص من الواقع والبحث عن بديل عنه، "ذلك أن الرفض يشير في أحد جوانبه إلى عدم استسلام الرافض"[2] ومقاومته لما هو مرفوض والسعي إلى تبديله بواقع أحسن، ولذلك نجد أن الخطيب كان رافضا لذلك الواقع العربي محتجا عليه شاعرا بعظم المفارقة بين ماض رائع وحاضر بائس مرّ فهو يقول:

تـــوزعتني دروب لا بقـــاء لهـــا ... الذل في الناس والعلياء في الكتب
كأنما أنا جمع اثنين سيف وغى ... معذب الروح في غمد من الخشب
لو كنت من مازن لم يستبِح وطني ... بنو اللقيطة من صرافة الذهب
لكنني وبني شـــعبي تخطّفَنَـــا ... قيلُ الملوك: ألا لابد من هرب
كأنما لم تلد في اليتم آمنة ... ولا حليمة هزت مهد مرتقب
كأنما الصنم الأعلى محدقة ... عيناه في زمرة الأزلام والنصب
وكم مسيلمة عمت خوارقه ... وعلم الناس دينا شرعه الكذب[3]

إن الشاعر هنا يعمد إلى جلد الذات، وهي الظاهرة التي كانت شديدة الوضوح في شعر نزار قباني بعد نكبة حزيران، وجلد الذات بنية موضوعية سجلت حضورا شديد الوضوح في شعر الخطيب عندما أحس بعجزه وعدم قدرته على مواجهة تناقضات الواقع وعدم قدرته على التغيير، فيعشش في الذهن شعور نابع من رغبة داخلية في النفس البشرية

---

[1] جان بلاش. **معجم مصطلحات التحليل النفسي**. ترجمة مصطفى حجاز. د.م: المؤسسة العربية، 1980: 62.

[2] **الخوف من الحرية**. ترجمة خالد عبد المنعم، 1972: 150. وينظر: فاتنة محمد حسين. "تجليات الرفض في شعر فدوى طوقان" مجلة **سر من رأى**، ع 37، 2011.

[3] يوسف الخطيب. **بالشام أهلي والهوى بغداد**. دمشق: دار فلسطين، 1988: 66.

بالتغلب على الهزيمة"[1]. وهكذا فإن يوسف الخطيب كان يرفض الواقع ويشعر بالألم لما يراه، وهو في الوقت ذاته متأكد من قدرات شعبه وواثق به لأنه ورث تلك الحضارة العظيمة؛ لكنه يرفض الواقع بشتى الوسائل بغية الخروج على تناقضاته وعدم الانصياع له لأنه واقع فجّ صنعته إرادة المستسلمين من الذين كانوا أدوات طيعة بيد الغرب الاستعماري. ومن الجدير بالذكر أن قصيدة الخطيب حافلة بالتناصّات فهي تتناص وزنا وقافية مع بائية أبي تمام الشهيرة في فتح عمورية ويتناص البيت الثالث مع بيت التميمي الشهير والبيت الرابع مع بيت المرقش فضلا على التناصّ الديني مع حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، بيد أن البحث ليس من وكده الوقوف عند التناصّات فقد عالجتها الكثير من الدراسات.

"ومن هنا يمكن وصف يوسف الخطيب بأنه شاعر الغضب الفلسطيني فبلاد العرب تضيق عليه وبه وهو لا يريدها أن تفتح ذراعيها مرحبة به كأنه ضيف، ومبعث غضبه أن بلاد العرب بدون فلسطين جسد بلا قلب ويعود سبب ذلك إلى الحكام العرب فيقول:

وأنا الذي وطني ارتحال الشمس/ ملء الكون/ لكني بلا وطن/ من ذا يصدقني"[2]

إنه غاضب شديد الغضب من الحكام العرب الذين أضاعوا فلسطين جوهرة العروبة وقلبها النابض؛ بتآمرهم وممالأتهم للقوى الاستعمارية وغبائهم السياسي فكانوا نقمة على هذه الأمة بدل أن يكونوا نعمة عليها، لذلك عمد إلى السخرية من هؤلاء الحكام والاستهزاء بهم. والسخرية فن أدبي عرفه الأدب العربي القديم منذ الشعر الجاهلي وانتشر بوضوح في شعر الهجاء في العصر العباسي حينما تحول شعر الهجاء إلى صور كاريكاتورية تحاول أن ترسم صورة مضحكة للمهجوّ، ولكنه ليس الضحك الذي يؤدي إلى الفرح انه ضحك كالبكاء – كما يقول المتنبي- فالضحك هنا ليس تنفيسا عن كبت أو حزن إنما للتعبير عن

[1] عبد الكريم السعيدي. **شعرية السرد في شعر أحمد مطر**. ط.1. لندن: دار السياب، 2008، 151.

[2] واحة الجحيم، 72.

حال مرة أو عن مأساة وطأتها شديدة وأثرها بالغ[1]، وقد دعا الخطيب الشعب إلى طرد هؤلاء الحكام ورميهم في مزابل التاريخ، فهم وحدهم سبب مأساة هذا الشعب فيقول في قصيدته (مطالع جزائرية):

أيا جارتا هلا لديك مقشة فاكنس من بيتي مزابل أزمان
هنا ردهات الشرق غصت جنوبها قمامة أفيون وأعقاب تيجان
وحيث كنسنا اللات من عقر دارنا تكاثر أوثان وأفراخ أوثان[2]

إن هذه السخرية على الرغم من وجودها معلما واضحا في القصيدة العربية الحديثة على يد العديد من الشعراء أمثال نزار قباني وأحمد مطر ومظفر النواب وغيرهم لكنها تمتلك خصوصية لدى الخطيب لأنه أكثرهم اكتواء بنار الحكام فقد أرضه ووطنه وتشرد أبناء جلدته في الآفاق ضائعين متشردين ولذلك فقد صب جام غضبه على الحكام العرب فهو يقول: [3]

أكاد أؤمن من شك ومن عجب هذي الملايين ليست أمة العرب
وبدلت همم الصحراء واسفي بياعة النفط عن خيالة الشهب
من شمروا الوغى الأردان من وبر فانظر لهم في طريّ القزّ والقصب
سل الجواري وما وشّين من برد والغانيات وما حلّين من ذهب
أما يؤرق ربّ القصر رجع صدى معذب في طلول اللد منتحب
وفي الجليل عذارى ينتحبن فما تسري الحميّة في عرق ولا غصب

لقد وصل حد الغضب في نفس الشاعر إلى حد التشكيك بهذه الأمة التي لم تكن أهلا للثقة التي تستحق بها أن تكون وريثة لصانعي الحضارات، فبعد أن كانت أمة الحضارة والأمجاد، نقلت إشعاعها إلى أقاصي الأرض أضحت بائع نفط ليس إلا بعد أن أنهكتهم

[1] حسن عبد الوارث. "قراءة في بعض ملامح السخرية في شعر البيروني" مجلة **الثقافة**، صنعاء، ع 24: 123.

[2] **واحة الجحيم**: 117.

[3] **بالشام أهلي**: 69.

الحضارة بمغرياتها وموابقها، فباعوا ذلك المجد المؤثّل بثمن بخس هو ملذات عابرة يوفرها لهم أعداؤهم ليجعلوا منهم أضحوكة الأمم. ويستمر في القصيدة ذاتها قائلا:

لكنني وبني شعبي تخطفنا فيل الملوك ألا لابد من هرب
فكل عرش على بُقيا جماجمنا أرسى قوائمه مختالة الطنب
لم يدر أن عظام الأبرياء به ألغام ثار تدوي ساعة الغضب[1]

إن الشاعر ينتقد بشدة أولئك الحكام ويسخر منهم أشد السخرية ويلاحظ أن الشاعر فيما يلي يتناص مع قول المرقش:

إنّا لمن معشر أفنى أوائلنا فيل الكماة ألا أين المحامونا[2]

وفي قصيدته (أربعون رباعية) يقول:

لم تقل لي لم كان النصر وهما واستحالة/ ألأنّ الشعب لم يرسم على العملة رسمك/ قبل ذا يا ملكا في الناس من غير جلاله/ حبذا لو عدت للمرآة كي تغسل وجهك[3]

إن الشاعر هنا يسخر من هؤلاء الحكام الذين شغلوا الناس بتمجيدهم وجعلوا من أنفسهم أنصاف آلهة داعين الشعب العربي لعبادتهم؛ في حين أنهم لم يقدموا لإسرائيل سوى التنازلات تلو التنازلات، فهم ليسوا أهلا للتكريم وهم متعالون على شعوبهم مترامون على أقدام الأجنبي. ولا يكتفي الخطيب بالسخرية من الحكام العرب فقط بل يشمل بسخريته وغضبه ابناء بلده الذين تحولوا بين ليلة وضحاها من ثوار إلى مفاوضين فيقول لهم في قصيدته (يوسف اوهلاقيت أوسلو):

تبت أياديكم وبئس هذه التجارة/ أعلنها جهر الرياح وليكن ما يكون/ بريئة منكم فلسطين التي تذبحون

---

[1] **بالشام أهلي**: 51.

[2] الخطيب التبريزي. **شرح ديوان الحماسة**. د.م: دار النهضة، د. ت: 128.

[3] يوسف الخطيب. **رأيت الله في غزه**. دمشق: دار فلسطين، 1988: 31.

ويقول في ديباجة القصيدة (هؤلاء هم اختلسوا شرف القضية الفلسطينية في عتمة هذا الليل العربي المنيخ من المحيط إلى الخليج وقاموا بتمزيقه في أقبية أوسلو الرطبة المظلمة لقاء أن يظفروا [...] أو يشتغلوا في أفضل الحالات بمنزلة المخاتير وأزلام الحارات على فتافيت الضفة الغربية وقطاع غزة)[1]

3) الإيمان بالوحدة العربية:

نشأ الخطيب شاعرا قوميا منتميا إلى حركة سياسية يسارية تؤمن بالوحدة العربية وتعدّها من أولى أولوياتها ولذلك ظل يتغنى بالمجد العربي ويثق بمستقبل الأمة، فهو مؤمن وواثق بأن القضية الفلسطينية لا يمكن حلها إلا بنظرة عربية شمولية تعالج الواقع العربي المتردي لأنه الطريق الوحيد للحفاظ على مصالح الشعب الفلسطيني المشرد على الأقل، لذلك نجد الشاعر يعد النضال في الأقطار العربية واحدا لأنه يجد العرب كلهم أخوته لا فرق بين فلسطيني وعراقي إذ يقول:

أخي في قمة الاهراس نعلك يسحق النذلا/ تتيه على رقاب المجرمين يسومها الذلا/ فلن نرضى لموطن عقبة الجبار محتلا[2]

فهو هنا يتحدث عن نضال المغرب العربي ومواجهته للاحتلال الفرنسي وما سجلوه من بطولات وتضحيات ظلت خالدة على ذاكرة الاجيال ولا ينسى أن يستحضر الامجاد العربية في التاريخ العربي مذكرا بعقبة بن نافع، كما أنه يشير إلى النضال في الأقطار العربية الأخرى فيقول:

أخي في المغرب الجبار في بغداد في السودان/ أخي في الفندق المخضوب أو في وحشة الزنزان/ جراحك حيث انت وجرح قلبي ها هنا سيان/ ميادين العروبة ما تناءت كلها ميدان[3]

---

[1] **بالشام أهلي**: 98

[2] **عائدون**: 75

[3] ن.م: 77.

إن الشاعر يشير هنا بوضوح شديد إلى أمرين في غاية الأهمّية أولهما أخوّته للعرب في أقطارهم كافّة وشعوره بما يشعرون، وثانيهما أن المؤامرة التي يحوكها الغرب لم تقتصر على بلده فلسطين لوحده؛ بل تمتد نيرانها لتحرق الأخضر واليابس في أقطار العروبة كافّة وأن قلبه موزّع في أقطار الوطن العربي بأكمله فيقول:

وإني بادية الشام أعقاب أهلي وأحرس بين الأثاث في أطلال داري/ وأزرع
واحة نخل لعيني دمشق وفي عشق بغداد غابة غار[1]

إن الشاعر هنا يجد أهله في أنحاء الوطن كله في الشام وفي العراق وفي بلاد الكنانة وفي المغرب العربي، لكنه يجد هذه الديار أضحت أطلال مجد أفل عفا عليه الزمن وأصبح نهبا بيد المحتل.

ويقول في قصيدة يتحدث فيها عن لبنان:

وها أنا التقط الرصاص من عيونهم في نار لبنان/ أسويه على صدورهم
قلادة/ يا أيها الموت الذي يشعل بالجرح الدجى أشهد أنك الولادة[2]

إن صورة الموت التي عبر عنها بنار لبنان المعبأ بالرصاص هي (صورة وصفية تعمل على تضخيم الموت بشكل بدت المدينة معه متمثلة بالشوارع لا تستوعبه ... وعلى نحو تخفق أية قدرة شعرية على مجاراة حجم الكارثة التي حلت بالمدينة لذلك تنأى الذات الشاعرة بالقصيدة عن السقوط في ساحة الرثاء المخصصة للبكاء وتجعل من كارثة الواقعة أكثر بلاغة وأشد تأثيرا في النفس)[3] فبيروت هنا رمز وحقيقة في آن واحد فهي تمثل المدن العربية جميعا التي تعاني من عدوين داخلي وخارجي لكن ما يسم حديثه عن بيروت المعبأة بالموت أن الشاعر لم يستسلم للموت ولم يجده نهاية المطاف بل يجد في الموت بداية جديدة ومرحلة ولادة للأمة وأن هذه التضحيات هي ولادة جديدة لأمة لا ترتضي لنفسها الموت بل

[1] بالشام أهلي: 106.

[2] ن.م: 18.

[3] خليل شكري. **القصيدة السير ذاتية بنية النص وتشكيل الخطاب**. الأردن: عالم الكتب، 2010: 370.

هي عنقاء خالدة تنبعث من تحت الرماد وتولد من جديد لأن الموت تضحية هي الشهادة وهي الولادة الخالدة وهذا يذكرنا بقول أبي تمام:

تـردى ثيـاب المـوت حمـرا فمـا أتـى لـه الليـل إلا وهـي من سـندس خضـر

إن الشـاعر يوسـف الخطيـب يتنـاول ظاهرة المـوت – الـولادة إذ يتحـول المـوت إلى حيـاة جديـدة تخلقهـا التضحية التي تصنع إنسـانا جديـدا من غياهب العـدم فقـد كان الخطيـب واثقا من مستقبل الأمة مؤمنا أن قادمات الأيام حبالى بكل ما هو جديد وقادرة على تجاوز المحنة التي تمر بها الأمة.

4) استدعاء الشخصيات التاريخية:

لجأ الشـاعر الخطيب إلى اسـتدعاء الشخصيات التاريخية الأدبية والسياسية في شـعره ولكـن هـذا الاسـتدعاء جاء بصيغة الحـوار وبث الشجون فالشـاعر لـم يلجأ لتقانة القنـاع ليتخطى وراء هذه الشخصيات ويبث عبرها ما يريد بل لجأ إلى محاورة هذه الشخصيات مقارنا واقعها بواقعه فالخطيب (يؤمن أن الشعر فعالية إنسانية لابد من أن تؤدي دورها في إيقاظ المجتمع، وفي هـذا الصـدد تصبح مخاطبة الجمهور وصلا لهذا الشعر بالتراث)[1] الذي تعمقت الهوة بينه وبين الحاضر البائس الذي لما يزل متباهيا بهذا التراث عاجزا عن الوصول إلى ادنى مراتبه. يقول الخطيب في قصيدته بطاقة معايدة إلى أبي الطيب المتنبي:

عيـد حللـت كمـا حولـت يـا عيـد فمـا وحقـك تحـت الشـمس تجديـد
أمـــا الأحبـــة فالأســـلاك دونهـــم ودون غـــــزة فـــــولاذ بـــــارود
أصـخرة أنـا مـن لحـمٍ ودفـق دمٍ وصـخرة القـوس رفـث وهي جلمـود
طغـى الخـــوار بهـــا والله أكبرهـــا تحشـــرجت وطـوى القـرآن تلمـود
نبي كنـدة فاهنـأ أن قضـيت ردى فغيـرك اليـوم يحيـا وهـو مـوؤود
ذاك الزمان الـذي منه بكيت أسـى عليـه أبكي وبعـض الجـرح تضـميد
مـا شـعب بـوان من حيفـا وكرملهـا والترجمـــــان ســـــليمان وداود

[1] أحمد ناهم. **التناصّ في شعر الرواد**. بغداد: دار الشؤون، 2004: 78.

وما الفتى العربي الحر في وطن لـه الـدوالي بـه إلا العناقيـد
تحولـت بوصـلات عـن مرافئهـا ومكـة الحلـم أمسـت وهي مدريـد
يـا مـن بليـت بأخشـيد بمفـرده مـاذا أقـول وبلـواي الأخاشـيد[1]

إن يوسـف الخطيـب يعـيش تجربـة (تـدفع إلى ذهنـه تجربـة مشـابهة عاشـها المتنبي فيستحضره ويتحدث من خلاله إذ يمر العيد على الخطيب وأهله وأحبابه خلف الأسلاك فيستذكر مرور العيد على المتنبي وهو في بلاط كافور بعيدا عن سيف الدولة)[2] لذلك فهو يتناص مع قصيدة المتنبي الشهيرة

عيـد بأيـة حـال عـدت يـا عيـد بما مضى أم بـأمر فيـك تجديـد
أمـا الأحبـة فالبيـداء دونهـم فليـت دونـك بيـدا دونهـا بيـد

ونلاحظ إن الشاعر تناصّ مع القصيدة في أغلب أبياتها تناصًّا إيقاعيًا ودلاليًا كما تناصّ في بعـض أبياتـه مـع قصـيدة المتنبي الأخـرى (شـعب بـوان) إذ لجـأ الشـاعر إلى اسـتدعاء شخصية المتنبي محاورا إياها جاعلاً منها معادلاً موضوعيًا لشخصه وهو يعاني بعيدًا عن وطنه وفردوسه المفقود في فلسطين الحبيبة، لا يجد من يعينه بل يجد من يعين عليه من الحكام العرب الذين أضحوا مثل حكام الدويلات في عصر المتنبي الذين شكا المتنبي منهم فكأن التاريخ يعيد نفسه من جديد. لقد سعى الخطيب إلى الإشارة إلى تشرذم الأمة وتفرقها وضياعها في حاضرها مثلما حدث في عصر الطوائف والويلات فأضحت الأمة تعاني من حكامها ويأسى الشاعر من هذا الزمن العربي المرّ الذي جعله يبكي على زمن بكى المتنبي منه. وإذا كان المتنبي في شعب بوان يعاني من غربة اليد واللسان فإن الشاعر يعاني من غربة اللغة في وطنه حين أضحى الترجمان غير عربيّ وأصبحت مدريد الاستسلام قبلة العرب لا مكة السلام.

[1] **الأعمال الكاملة**: 3/ 214.

[2] ثائر زيد الدين. **أبو الطيب المتنبي في الشعر العربي المعاصر**. دمشق: منشورات الكتاب العرب، 1999: 46

وحين يتحدث عن ضياع حقوق الفلسطينيين يقول ببيتيه الشهيرين:

لابن هند في العدل سالف سبق ما علي بمستطيع لحاقه
مذ بعير الكوفي بين يديه للدمشقي قد تحول ناقه[1]

ولهذين البيتين مرجعية تاريخية تعود إلى أن كوفيا وشاميا تنازعا لدى معاوية عند عودته من صفين على جمل قال الكوفي انه فقده في المعركة فقدم الشامي خمسين رجلا شهدوا أنها ناقة الشامي فحكم له بها فقال أصلحك الله يا أمير المؤمنين انه جمل، فقال له هذا حكم قد قضي واستبقاه وأعطاه بعد خروج الناس ضعفي ثمنه وقال ابلغ عليا اني أقابله بمئة ما فيهم من يفرق بين الناقة والبعير[2]

إن الخطيب يستثمر هذه القصة ليوضح دور الامم المتحدة والمنظمات الدولية في تعاملها مع القضية الفلسطينية حين يصبح المحتل هو صاحب الحق ويصبح المدافع عن ارضه وماله وعرضه معاديا للسلام.

ويستدعي في قصيدة اخرى شخصية صلاح الدين الأيوبي فيقول في احدى قصائده (بالشام أهلي والهوى بغداد) مستدعيا شخصية امرأ القيس وصلاح الدين الأيوبي فيقول:

من أنت أيها الضليل؟/ تصرخ القروح والجروح والوديان/ إنا صلاح الدين
ديس في الخليل شرفي/ ضيعت علياء الذرى جميعها/ شرقت ... غربت/
اعتصمت أعلى أرزة على ذرى لبنان/ ها أنا من متن صنين أصيح مد
الصوت/ يا كمال يا كمال ... يا غسان يا غسان[3]

إن الشاعر وهو يستذكر الشهيدين كمال عدوان وغسان كنفاني يستدعي شخصية صلاح الدين محاولا التقنّع بها وهو شأنه شأن الكثير (من الشعراء العرب الذين أصيبت

[1] فاروق مواسي. **يوسف الخطيب والبحث عن العدل**. موقع الواحة الإلكتروني.

[2] عبد الملك العصامي. **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**. تحقيق عادل أحمد. بيروت: دار الكتب، 1998: 559

[3] **بالشام أهلي**: 31

نفوسهم بالإحباط ففقدت الثقة بالمشروع القومي النهضوي فاندفعوا إلى الانكفاء على التراث ومحاولة التشبث بشخصية صلاح الدين الأيوبي التي ترتبط بالقضية الفلسطينية وبتحرير القدس)[1] ولكن الشاعر هنا حينما يستدعي شخصية صلاح الدين الأيوبي لا يستدعيها بصورتها الحقيقية صورة القائد المنتصر بل يستدعيها قارنا إياها بصورة (الملك الضليل) امرئ القيس الذي ضاع مجده وذهب ملكه فترى صورة صلاح الدين مغايرة لواقعها فهو يعكس التاريخ (حسب نظرته الكلية للتاريخ والأشياء مما يدل على أن المرآة لا يمكن أن تكون غير متحيزة كما لا يمكن أن تعكس التاريخ بالمعنى الدقيق، بل توظفه بالصورة التي يريد الشاعر الإشارة إليها وهي الواقع العربي المعاصر المليء بالهزائم المرة والفجائع المتتالية)[2]

ويستدعي شخصية الحسين بن علي سيد الشهداء وسبط المصطفى ورمز الشهادة في التراث العربي الإسلامي فيقول في إحدى قصائده:

نحن يا ابن البتول دولارنا الله تعالى وجلت الأسماء[3]

فهو يحاور شخصية الحسين لينفث من خلال حديثه معها ازدراءه للواقع العربي الذي تحول إلى عبادة المال جاعلا من أمريكا قبلة له فكأنه اختار شخصية الحسين ليجسد واقع الظلم ومداراة الظالم على حساب المظلوم ذلك أن الشعر العربي المعاصر استفاد من مأساة كربلاء واستشهاد الحسين في عدد كبير من القصائد المعاصرة التي تناولت الثبات على المبادئ والتضحية بالغالي والنفيس من أجلها وعدم المهادنة[4]

---

[1] حسين بن حمد دغريري. **صلاح الدين في الشعر العربي المعاصر في المشرق**. أطروحة دكتوراه. السعودية: جامعة أم القرى، 2006: 47.

[2] إحسان عباس. **اتجاهات الشعر العربي المعاصر**. الكويت: عالم المعرفة، 78: 162.

[3] **عائدون**: 57.

[4] للتفصيل في ذلك ينظر: لبراهيم محمد عبد الرحمن. **استدعاء شخصية الحسين بن علي في الشعر العربي الحديث**. د.م: دار اليقين، 2009.

ويقول في قصيدة (بالشام أهلي والهوى بغداد):

كان في النجيع لم تزل تغوص كربلاء/ تستضيئ حسن وجه الله هامة الحسين/ تستحيل شعلة من اللجين/ آية ... فراية .... صارخة حمراء[1]

إن الشاعر يستفسد من مأساة سيدنا الحسين ليجعلها رمزا لماسي شعبه وقد يكون ذلك مسوغا دلاليا لكون مأساة كربلاء أضحت تعبيرا في الذاكرة الجمعية الإسلامية العربية لعذابات الإنسان وتضحياته فينفتح الزمن في هذا التوظيف على دلالات تتعدى الحدود الآنية نحو المطلق المعبر عن التضحية التي تغدو منارا للخلاص. لكن، نجد تفاؤله سرعان ما يصطدم بالواقع الذي تعيشه العروبة بسبب حكامها فيقول:

ألم يزل يكتسح الأرض حزيران/ وتغزون ولا تغزون/ قد جرعتموني الموت أنفاسا/ وهذي غامد قد بلغت خيولها الأنبار[2]

إن الشاعر وهو يعيش أجواء هزيمة حزيران ونكسة العرب.. يعود وقد ازداد إحساسه بالمحنة فيستدعي صورة مغايرة لسيدنا علي، ليست هي صورة فارس الإسلام وحامل رايته بل صورة الخليفة الحائر أمام جيشه المتخاذل المترع بروح الهزيمة التي خلدها بخطبته المعروفة بخطبة الجهاد والتي يتناص معها الشاعر الخطيب في قصيدته هذه إذ ورد في الخطبة (هذا أخو غامد وردت خيله الأنبار ... ما نال منهم رجلا كلم ولا أريق لهم دم، فلو أن امرءً مسلما مات من بعد هذا أسفا ما كان به ملوما بل كان عندي جديرا، فيا عجبا والله يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم فقبحا لكم وترحا حين صرتم غرضا يرمى يغار عليكم ولا تغيرون وتُغزون ولا تَغزون ويُعصى اللهُ وتَرضون)[3]

إن سيدنا علي لجأ إلى لغة مفعمة (بالتشخيص والتجسيد والأنسنة وسوى ذلك من

---

[1] **بالشام أهلي**: 30.

[2] **ن.م**.: 37.

[3] محمد عبده. **شرح نهج البلاغة**. بغداد: مكتبة النهضة، 1984، 67/1.

مقومات المجاز بوصفه المساحة الأكبر في الخطبة التي نلاحظ فيها أن مستوى التعبير الدلالي يحاول تقريب الفكرة عن طريق اللغة المجازية)[1]. اما الخطيب فقد أفاد من هذه الخطبة ليربط موقف أصحاب علي وتخاذلهم بتخاذل العرب الذي أدى إلى قضم المزيد من الأرض (ولعل تداخل صوت الشاعر بصوت الإمام علي من خلال تضمين مقولته قد ألغى حاجز الزمن بينهما لتتوحد بذلك الزمانية الماضية مع الزمانية الآتية والتي تنفتح دلالتها على الخيبة وإلياس مع استمرار الهزيمة وغياب الأمل)[2] وقد تجلى أذن استدعاء شخصية الامام علي في موقفين متناقضين موقف البطل المنقذ المنتظر وموقف القائد الحائر امام تخاذل وتواكل من حوله. ويقف الخطيب طويلا مع شخصية الرسول محمد (ﷺ) في قصيدته الشهيرة (الطريق إلى محمد) فيقول مخاطبا خاتم الرسل:

لي في أعاليك ينبوع هممت به ... لكن رجلي في مستنقع الوشل
أدني إلى الأرض أذني اقتفي أثرا ... لو يصهل الرمل بالخيالة الأول
أبا العروبة إني خارج لغد ... من غيم أمسك وافي الغيث منهمل
آنست نارك في الظلماء آن خبت ... على مدار الدجى كذابة الشعل
خلقت أهلي بأعلى القدس مطفأة ... جراحهم من أضأن الكون من حبل
أفض خوابي حراء من عرائشها ... وصب في الليل ضوء الله في المقل[3]

الشاعر الخطيب يتمسك (بأبي العروبة) وصانع أمجادها الرسول الأعظم محمد (ﷺ) فهو يعيش حدة المفارقة بين ماضٍ عريق مثلته النهضة الإسلامية وحملتها من العرب وما تعانيه الأمّة ذاتها من هزائم وركود في حاضرها الغارق في (مستنقع الوشل) فهو يحلم بأن يصهل رمل الأرض العربية بالخيالة الأول، وكم زاد من جمال النص دقة التكرار الجناسي في (أدني، أذني)، (ثم تأتي ثنائية النور والظلام بعد ذلك لتعمق البنية الدرامية والفكرية في النص، إذ يرتكز الشاعر في بناء رؤيته الفكرية على نار محمد التي آمن وأنس بها لتمزق

[1] نوفل أبو رغيف. **المستويات الجمالية في نهج البلاغة**. بغداد، د.ن، 2008: 244.

[2] حسام إلياس. **الفضاء في شعر يوسف الخطيب**. رسالة ماجستير، د.م: آداب الموصل 2006: 109.

[3] **رأيت الله في غزه**: 51

حالة الظلماء التي لفت واقعنا العربي، أما الوظيفة الجمالية فتتجسد هنا بتعايش النقيضين النار والظلام ... ومن خلال هذه الثنائية يقودنا إلى فكرة أخرى قائمة على التناقض وهي النور الحقيقي الذي يمثله النور المحمدي والنور الزائف الذي لمسناه خلال حالة التراجع التي مرت بها أمتنا ... نحن إزاء معمار شعري مدهش[1] يمثل جماليات قصيدة نجحت في الاستضاءة بشخصية الرسول محمد (ﷺ) لرفض الواقع المعاصر.

ولعل قمة ما فعله الخطيب من استدعاء في شعره هو تجسيد الذات الالهية تجسيدا معنويا – إن صح التعبير – حين حاول في قصيدته (رأيت الله في غزة) أن يجسد رعاية الذات الالهية للشعب الفلسطيني بعد أن لم يبق للفلسطينيين معين سواه يقول:

رأيت الله في غزة/ يؤرجح فوق نور ذراعه طفلا إلى أعلى/ ويمسح في سكون الليل أدمع أمه الثكلى/ رأيت الله في الساحات يغمض أعين القتلى/ ويسقي في مدافنهم غصون الآس والدفلى/ رأيت الله يأتي الكوخ والخيمه/ يزق صغاره السغبين باللقمه/ يطوف على شبابيك السجون يضيء فوق شفاههم بسمه/ رأيت الله يبرح قبة الجامع/ وينزل في صدور المؤمنين ويملأ الشارع[2]

إن الشاعر يجعل العناية الإلهية وحدها هي التي تناصر الفلسطينيين في محنتهم وتقف معهم في أدق تفصيلات حياتهم في هذا الزمن العربي الرديء والواقع العربي المتردي والشاعر ينتقد الواقع العربي بصورة غير مباشرة كما ينتقد المؤسسات الرسمية العربية فضلا على انتقاد المؤسسات الدينية مؤكدا أن دور المؤسسة الدينية لا يقتصر على الجانب العبادي وحده بل يمتد إلى الشارع ليشد عزيمة الناس في محنتهم.

إن هذه القصيدة تمثل رفضا للواقع العربي وإيمانا حتميا بضرورة تواشج المؤسسات الدينية والشعبية بعد أن تخلت الاقطار العربية والعالم بأسره عن الفلسطينيين وظلوا يواجهون لوحدهم.

---

[1] ناهض حسن. **يوسف الخطيب ذاكرة الأرض ذاكرة النار**. دمشق: د.ن، 2004: 42.

[2] **رأيت الله في غزه**: 8.

5) حلم العودة:

ظلّ حلم العودة من الثوابت الفلسطينية التي لا تقبل التغيير في الفكر الفلسطيني وفي الشعر بخاصة، فعلى الرغم من الهزائم العسكرية العربية المتتالية والتنازلات المتتابعة التي قدمتها الأنظمة العربية والقيادات الفلسطينية إلا أن حلم العودة ظل أمرا ثابتا لم يتخل عنه الشعر الفلسطيني على الإطلاق بل أن مخيلة الشاعر الفلسطيني كانت متأكدة من ذلك واذا كان (لهاجس العودة حضور في كل مرحلة من مراحل الشعر العربي الفلسطيني التي أعقبت النكبة، فاختلفت حركية الإبداع في القصائد التي تناولت الموضوع باختلاف الزمن الشعري وتداعيات القضية الفلسطينية فهي انفعالية ومباشرة في أول عهد النكبة ورومانسية حالمة عندما باعد الزمن بين الفلسطيني وأرضه ومرمزة مكثفة الصور في زمن شيوع التجريب والحداثة)[1].

ويمكن القول أن شعر الخطيب مر بالمراحل الثلاث إذ يقول في قصيدته بيوت الناس:

نحن يا يافا ارتقاب الصبح — لا أجفاننا تسهو ولا نلمح شيا
وقذفنا في يد الدرب الأدلاء — فلم ترجع لنا الآفاق أيا
أم ترانا أشبعت — أقدامنا العرجاء نأيا
لم نزل يا أم نستهدي لك الأبواب — أدمنا بيوت الناس سعيا[2]

ويقول في قصيدته (المدينة الضائعة المفتاح):

آه يا مكة أحلامي ويا رحلة أشواقي البعيده/ إنني أنزف في أثرك أعصابي وروحي/ لك غنّيت وصلّيت وصمتّ/ لك منذ البدء كنت/ فيك علقت على الطّور وقمت فمتى تشفع لي عندك آهاتي المديده/ لا تبوحي لسوى أربعة الريح سآتيك على صهوة أشواقي العتيده[3]

---

[1] نجمة حبيب. "طقوس العودة ودلالاتها في الشعر العربي الفلسطيني" **مجلة جامعة النجاح** م23 سنة 2009: 941.

[2] **واحة الجحيم**: 13.

[3] **بالشام أهلي**: 42.

إن الشاعر على الرغم من النكبة الأولى بضياع فلسطين ما زال يحلم بالعودة ويحسب الساعات والدقائق للعودة إلى فلسطين، فبلاده هي قبلته التي يستهدي بها وهي مكة أحلامه التي يتجه إليها فهو يشعر أنه لم يخلق إلا لهذه الأرض ولم يوجد إلا ليعيش في رحابها مشبّهًا ذاته بالسيد المسيح فإذا كان المسيح صلب من أجل عقيدته فهو قد صلب من أجل أرضه وأنه يبقى يحلم بالعودة إليها ما دام نبض الحياة في عروقه.

ويقول الخطيب برومانسية حالمة في قصيدته (لو ميتا ألقاك):

يا حلم الأحلام لو دما يفيض في تويج وردة لو برعما يطلع في الجليل/ لو عبير برتقاله ينشر في السفوح/ لو مويجة تمخضها البحار في تعاقب الظلام والنهار/ لا أنشد الوجود غير ذاك/ أن أشبع منك، أن أراك أن أراك[1]

إن الخطيب يلجأ إلى أسلوب الرومانسيين في التعلق بالطبيعة وبثّ العواطف من خلالها، فهو يبثُّ عاطفته إلى فلسطين من خلال وصف جمال تلك البلاد ويرى أن العودة إلى جمال تلك البلاد والعيش على ترابها وشم عبير أرضها حلمه الذي لا بد له أن يتحقق مهما طال الزمن أو مرت الأيام.

وحين يرى التفكك العربي الذي يهدد الوحدة فانه كان يشعر أحيانا بالإحباط فيقول:

رايــة البعــث في يــدي وخــوفي أن بالقــدس لات يــوم تــلاق
بــين حيــين في الســقيفة أبكـي حــي ســورية وحــي العــراق[2]

إن الشاعر شديد الوثوق أن أحلامه بالعودة لا يمكن أن تتحقق في ظل هذا الواقع العربي المتردي الذي أضحى فيه العرب أيدي سبأ، يعادي بعضهم بعضا مما يجعله خائفا أن لا سبيل لديه في العودة إلى وطنه ما دامت الأمة تعاني من التمزق، لكنه مع ذلك ما زال يأمل بالعودة ويحلم بها فيقول:

[1] **واحة الجحيم**: 34.

[2] **بالشام أهلي**: 102.

فقم وانظر شواطئنا يجر ذيوله القرصان/ ويولد من مخاض الليل فجر البعث والإنسان[1]

نعم ما زال الشاعر يحلم بالفجر الآتي وينتظر بفارغ الصبر الحلم الذي لم يتحقق حلم العودة إلى بلاده الذي ظل منتظرا حتى اللحظات الأخيرة من حياته فعل الرغم من كل التردي العربي إلا أنه كان واثقا بمستقبل الأمة الذي يتحقق بعزم الثوار لا بمفاوضات الأنظمة.

6) الثقة بالمستقبل

على الرغم من عمق المأساة التي كان يعيشها الشاعر إلا أنه كما قلنا لم يكن مستسلما لذلك الواقع وكان يرفض التفاوض الاستسلامي ويعده أشدّ خطرا على الأمة من العدو نفسه، فقد كان يدرك أن المفاوضات لا تؤدي إلا إلى المزيد من المآسي، بيد أنه واثق من الأجيال العربية التي ستعيد الحق إلى نصابه فهو يقول:

تحديت أن شعبي يباع، وموطني يباح، وأن أغلي الحصى قوت أطفالي
صعابٌ دروبي في الموات اجتبيتها وفي الشوك والجلمود والأفق العاري
ويا أيها الجلاد، أوثقت معصمي فمن أين، يا جلاد، توثق إصراري[2]

إن الخطيب يعلن تحديه للمحتل مهما استجمع من قوة وما حشد من جيوش مدعومة بالقوى العالمية فصبر شعبه أكبر من تلك الجيوش لأنه يمتلك سلاح الإيمان والصبر والتحدي. ويقول في قصيدته (رأيت الله في غزه)

أنت الآن مكة كل قافلة وغار حراء كل نبي/ وأنت الآن طير البعث يهبط معبد اللهب/ يحط ختام هذا الليل ينفخ في قراب السيف/ روح الحرف بين قبائل العرب/ وأنت الآن آمنة وأنت حليمة الصحراء/ وبوحك صار جبريل القصيد

[1] أحمد الحسين. **ينظر يوسف الخطيب ذاكرة الأرض والنار**. موقع ستار تايمز.

[2] **واحة الجحيم**: 146.

وسورة الشعراء[1]

لقد ضحت غزه الأمل الذي يخلق الثقة التي تشمخ على الاستسلام وطائر الفينيق الذي يولد من تحت الرماد، فغزه الواقع والرمز في آن واحد، فهي رسالة الأمة الجديدة التي تعيد أمجاد الرسالة المحمدية وتنفخ في سور الثورة بين الأقطار العربية التي أصبحت قبائل متناحرة لكن ميلاد نبي العصر الجديد قادم. يقول في قصيدته الفاتحة:

معا أيها الصحب فلنقرا الفاتحة/ لغزة بحر يفور سوى بحر أوسلو/ أعذب فرات وملح أجاج/ وبينهما برزح المستحيل/ هنيئا جحا لك صفقة أوهامك الرابحة/ ولكن جيلا جميلا من البحر للنهر/ لم يتفطن لميلاده حاسب من ألكترون هذا الزمان/ تبدل عجز البطاريق معجزة طامحة[2]

إن الخطيب يبني قصيدته على شعرية المفارقة القائمة بين واقعين متناقضين في المشهد العربي، غزه رمز التحدي والصبر يقابلها محاولات الاستسلام المتتالي في أوسلو وما بعدها (بحيث تبدو وكأنّ القصيدة لا تعتمد على التلبّس بمنظور واحد بل تبني ثراءها التعبيري على عرض هذه المنظورات المتفاوتة وتجاوزها في الآن ذاته)[3]. ويستثمر الشاعر التناصّ القرآني عذب فرات وملح اجاج ويستدعي شخصية جحا ليعمق المفارقة التي بنت منظورها الشعري على التجاور والتجاوز في آن واحد ليصل في النهاية إلى الحكم بأن الزمن هو للجيل العربي الآتي. ويقول:

كأنني الآن جميع أمتي أموت/ لكنني أقرأ في الرؤيا/ إني أنا الخضر الذي سأقتل الطاغوت/ وإنني ثانية أحيا[4]

إن الشاعر في الزمن العربي الموات الذي فقد فيه الأمل بحاضر الأمة وحكامها ما زال

[1] **رأيت الله في غزه:** 15.

[2] تنظر القصيدة في موقع منبر العرب الإلكتروني.

[3] صلاح فضل. **أساليب الشعرية المعاصرة**. بيروت: دار الآداب، 1994: 119.

[4] **بالشام أهلي:** 17.

واثقا من المستقبل العربي لذلك يلجأ إلى تقانة القناع التي تفتح له الأبواب مشرعة (لأن يقول كل شيء دون أن يعتمد شخصه أو صوته بشكل مباشر لأنه سيلجأ إلى شخصية أخرى يتقمّصها أو يتّحد بها .... ويحمّلها آراءه ومواقفه)[1] فهو يتقنّع بشخصية الخضر الذي كثر الحديث عنه في التراث العربي الإسلامي بوصفه خالدا حتى قيام الساعة ليؤكد استمرار حياة الأمّة. ويقول في مقطع آخر:

أذبح في غزة، في صيدا وفي بيروت/ من عنق شعبي الصغير/ لكنني إذ يشرب السكين خمر صدري/ أحسّ إنني أقوم/ أحسّ أن وسع الأرض مولدي وقبري وأن ليلتي نجوم[2]

إن الشاعر يشير إلى فكرة التضحية في العقيدة المسيحية التي تخلق الحياة من الموت وهي ظاهرة كانت شديدة الوضوح عند رواد الشعر الحرّ وبالأخصّ السيّاب وجيله بسبب تأثّر الشعراء بالفكر الغربي وبخاصة عند ايديث ستويل واليوت[3] والخطيب ابن هذا الجيل يستخدم هذا الأسلوب ليؤكد أن الشعب الذي قدم هذه التضحيات لن يموت.

لعل هذه أبرز الموضوعات التي تناولها الخطيب في شعره ومن الجدير بالذكر أن شعره حافل بالظواهر الفنّية كالتناصّ والثنائيات والانزياح والتشكيل الإيقاعي لكننا أجلنا ذلك لدراسات لاحقة.

[1] محسن اطيمش. **دير الملاك**. ط2. بغداد: د.ن، 1986: 103.

[2] **بالشام أهلي**: 84.

[3] محمد جواد البدراني. **ينظر الحركة النقدية حول السياب**. بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2013: 228.